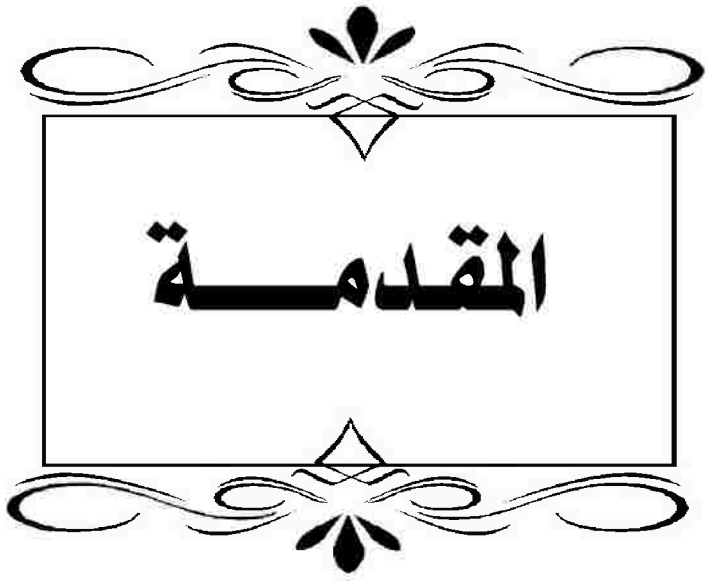
المقدمـــة

هذا الكتاب هو جزء من رسالتى للدكتوراة، وهى بعنوان "أدب الجاحظ فى صلته بتيارات عصره السياسية".

وفى هذا الكتاب أتناول تيار الشعوبية فى أدب الجاحظ، ذلك التيار الذى كان هادرًا فى العصر العباسى الأول على وجه الخصوص، ووقف له الجاحظ – على رأس الكتاب والمفكرين المدافعين عن العرب – بالمرصاد يبطل حجج أنصاره وأشياعه من العناصر والأجناس المختلفة خاصة الفرس.

ويهاجم أيضًا الزنادقة الذين أدَّى بهم الانجراف فى تيار الشعوبية إلى مهواة الزندقة. وهو فى كل هذا يدافع عن العروبة والإسلام أمام أعدائهما من الشعوبيين والزنادقة.

وقد قسمت هذا الكتاب إلى تمهيد وثلاثة فصول.

تناولت فى التمهيد مفهوم الشعوبية والتسوية عند الجاحظ، ثم عرضت للدور الكبير الذى قام به الجاحظ فى التصدى للشعوبية.

والفصل الأول درست فيه مؤلفات الجاحظ التى واجه فيها الشعوبية، وفى الفصل الثانى تناولت أنواع التيارات الشعوبية ومواجهة الجاحظ لها، وفى الفصل الثالث درست العناصر الشعوبية واتهاماتها للعرب ورد الجاحظ عليها.

وذكرت بعد ذلك قائمة المصادر والمراجع التى اعتمدت عليها فى هذا الكتاب.

ولا يسعنى فى هذا المقام إلا أن أتقدم بوافر الشكر لأستاذى الأستاذ الدكتور سعيد حسين منصور الذى أشرف علىّ فى رسالتى الماجستير والدكتوراة، وأفدت الكثير من علمه الغزير وكتبه القيمة.

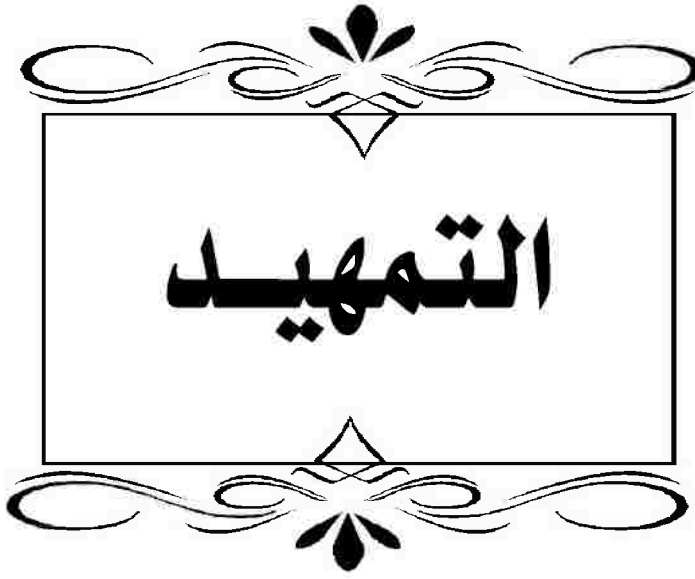
التمهيد

مفهوم الشعوبية والتسوية عند الجاحظ

يوجد اختلاف كبير بين المؤرخين والباحثين حول تحديد مفهوم الشعوبية والتسوية[١]، وتحديد الوقت الذى ظهر فيه هذان المصطلحان.

وما يعنينا هنا أن نذكر مقصود الجاحظ بهذين المصطلحين، وننظر مدى الاتفاق والاختلاف بين مقصود الجاحظ لهما، وما ذكره غيره من المؤرخين والباحثين لمفهومهما.

أما عن مصطلح الشعوبية فيبدو أن الجاحظ يرى أن أصله مأخوذ من الشعوب، التى تعنى الدائرة الأوسع فى النسب، وتقابلها العشائر، وهى تعنى الدائرة الأصغر فى النسب؛ ولأن العجم يزيد عددهم عن العرب بكثير فلهذا ينسب إليهم لفظ الشعوب، فى حين أن العرب ينسب إليهم لفظ العشائر، ويفهم هذا من قول الجاحظ: إن رجلاً خرج من بلده إلى ملك من الملوك ولم يزل عنده عظيم الشأن جليل السلطان "تدين له من عشائر العرب سادتها وفتيانها ، ومن شعوب العجم أنجادها وشجعانها"[٢].

ويتفق قول الجاحظ فى نسبته الشعوب للعجم والعشائر والقبائل للعرب مع ما جاء فى المعاجم حول تعريف لفظ الشعوب ولفظى القبيلة والعشيرة [٣]، وكتب التفسير حول تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾[٤].

على أن الجاحظ – ومن قال بقوله فى نسبته الشعوب للعجم والقبائل والعشائر للعرب – ربما يكون قد قصد أمرًا آخر، وهو أن الشعوب هم الذين ينسبون إلى المدائن والقرى، والقبائل: الذين ينسبون إلى آبائهم [٥] .

فقبائل العرب تعتز باحتفاظها بأنسابها، وأصالة دمائها، وهذا مما تتباهى به على العجم التى لا تهتم بالأنساب، وإنما يرتبط أهلها بالمدائن والقرى التى يعيشون فيها وينتسبون إليها.

ومن هنا فإننا نستنتج أن لفظ الشعوب قد أطلقه العرب على العجم ، تعريفاً لهم بأنهم الدائرة الأوسع فى العدد مقارنة بقبائل العرب، وأيضًا لكونهم غير محددى الأنساب فقد نسبوهم إلى الشعوب المجهولة الأنساب.

وهذا التعريف من العرب للعجم بالشعوب قد سبق بوادر الصراع العربى الشعوبى، ويفهم ذلك من الأثر الذى جاء فيه "أن رجلاً من الشعوب أسلم فإنه يعنى من العجم"(٦).

ويبدو أن العجم لم يضايقهم تعريف العرب لهم بالشعوب، فهم قد يجدون فيه ما يدل على أنهم الأكثر عددًا، وأنهم قطعوا شوطًا كبيرًا فى الحضارة، فهم قد تعدوا طور القبيلة المتقوقعة فى أنسابها الضيقة إلى طور الشعوب النابذة للأنساب الضيقة الموغلة فى الحضارة والعمران.

أما عن لفظ الشعوبية فيبدو أنه أطلق على العجم بعد أن ظهر التيار الشعوبى المعادى للعرب فيهم، ووضحت معالمه فى العصر العباسى الأول(٧).

والجاحظ فى كتبه دائمًا يستخدم لفظ الشعوبية – نسبة للشعوب الأعجمية – قاصدًا به تلك الطائفة من العجم التى تحتقر العرب وترى لنفسها فضلاً عليها.

ومن ذلك قول الجاحظ: "قالت الشعوبية ومن يتعصب للعجمية"(٨). ثم يأتى بأقوالهم فى الهجوم على عادات العرب فى الخطابة والحرب وما إلى ذلك.

وكذلك يقول فى موضع آخر من أحد كتبه: إن العصبية والحمية هما "ما صارت إليه العجم من مذهب الشعوبية، وما قد صار إليه الموالى من الفخر على العجم والعرب"(٩).

فى حين يرى الجاحظ أن مصطلح التسوية مخالف لمصطلح الشعوبية، فمصطلح التسوية عنده يعنى المساواة بين كل الناس أمام الله، وعدم تفضيل أمة على أمة أو جنس على جنس إلا بالأعمال. فالجاحظ فى كتابه العثمانية يأتى بالآثار والأخبار على عمل الخلفاء الراشدين- خاصة أبا بكر وعمر – بالتسوية بين الناس وعدم تفضيلهم العرب على الموالى والعجم، ثم يقول: "فإن كان هذا لا يدل على التباعد من الحمية والأعرابية والعصبية، ولا يدل على التسوية ، فما عندنا ولا عند أحد شئ يدل على شئ"(١٠).

ويتوسع الجاحظ فى عرض أدلة أنصار التسوية، ولا يخفى أن الجاحظ يقف إلى جانبهم؛ لأنه يعرض حججهم من خلال أحاديث النبى ﷺ وأقوال الخلفاء الراشدين، ويستفيض فى ذكرها(١١).

على أن الجاحظ عندما يطلق على الشعوبية لفظ أهل التسوية فذلك على اعتبار أنهم سموا أنفسهم هذا الاسم، ويُظْهر الجاحظ عند نسبته لهم هذا الاسم – أهل التسوية – أنه اسم اختاروه هم لأنفسهم تسترًا خلفه، وحتى يظهروا أنفسهم أمام الناس بمظهر طلاب الحق الذى ارتضاه الله ورسوله ﷺ.

وهذا يعنى أن الجاحظ لم يكن يرى استحقاق الشعوبيين لأن يتسموا باسم أهل التسوية، يقول الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين: "ونبدأ على اسم الله بذكر مذهب الشعوبية ومن يتحلى باسم التسوية وبمطاعنهم على خطباء العرب ...."(١٢).

فهؤلاء الشعوبيون – عند الجاحظ – قد تحلوا باسم التسوية ، ويالها من حلية خادعة يوهمون بها الناس أنهم طلاب حق ، ولكنها حيلة زائفة يكشف قناعها الجاحظ ليرى الناس بشاعة المتحلين بها من الشعوبيين أعداء العروبة والإسلام.

الدور الكبير الذى قام به الجاحظ فى التصدى للشعوبية

كان الشعوبيون من الفرس فى العصر العباسى الأول قد اطمأنوا إلى قوة نفوذهم بعد أن قامت الدولة العباسية على أيدى الفرس، وأصبح كثير منهم وزراء للدولة وكتاباً لها، حتى لقد صارت وظيفة الوزير حكراً عليهم؛ ولهذا فقد أصبحت خلاياهم الشعوبية التى كانت نائمة فى العصر الأموى – أو أشبه بالنائمة – فى شدة اليقظة فى هذا العصر، وأخذت مظاهر الشعوبية تتضح كتيار شديد يحاول أن يعصف بالدولة العباسية، ويعيد المجد الفارسى والأديان الفارسية إلى الوجود مرة أخرى على مسرح العراق وفارس على وجه الخصوص.

وقد بدت الشعوبية بأشكالها المختلفة: سياسية ودينية وأدبية، ذئاباً تحاول أن تنهش فى الدولة العباسية؛ ولذا كان لابد من أن يكون هناك كتاب تجرى دماء العروبة فى عروقهم وحب الإسلام يتردد فى قلوبهم ليقفوا أمام هذه الذئاب الضارية.

ولقد كان من حسن حظ الحضارة العربية الإسلامية أن يكون الجاحظ على رأس المدافعين عنها أمام معسكر الشعوبية وضجيج إساءاته للحضارة العربية الإسلامية[١٣].

وتتعدد المعارك التى خاضها الجاحظ ضد هذا المعسكر الشعوبى، وتكثر الجولات التى ناظرهم فيها وفضح نواياهم الخبيثة ضد الإسلام والدولة العباسية، وكشف ادعاءاتهم الباطلة، حتى ذكر شيخ نقاد العرب عبد القاهر

الجرجانى الجاحظ بكثرة وقفاته مع الشعوبية وتسفيهه إياها، وذلك فى قوله: "ونرى الجاحظ يدَّعِى للعرب الفضل على الأمم كلها فى الخطابة والبلاغة، ويناظر فى ذلك الشعوبية، ويواجههم ويسفه أحلامهم فى إنكارهم ذلك، ويقضى عليهم بالشقوة وبالتهالك فى العصبية، ويطيل ويطنب"(١٤).

كما يذكر أستاذنا الدكتور سعيد منصور أن الجاحظ لكثرة مؤلفاته ووقفاته مع الشعوبية – قد غدا موضوع الشعوبية "منسوباً إليه مقترناً به وبجهوده الكبرى"(١٥)، وإن اتصلت به جهود بعض الكتاب من غير بيئات المتكلمين، كابن قتيبة.

وقبل أن نعرض لأنواع التيارات الشعوبية المختلفة التى واجهها الجاحظ، ولعناصرها، وللقضايا التى صارعهم فيها وهدم حصونهم عندها – نحب أن نذكر فى الفصل الأول من هذا الكتاب تلك الكتب التى تعرض لهم فيها.

- هوامش التمهيد -

(١) د. خليل جفال : الشعوبية والأدب أبعاد ومضمونات. بيروت، دار النضال، ط١، ١٩٨٦م، ص ١٨ .

(٢) رسائل الجاحظ : تحقيق عبد السلام محمد هارون. القاهرة، مكتبة الخانجى، لا.ت. رسالة فى الحنين إلى الأوطان، ٣٨٤/٢ .

(٣) ابن منظور: لسان العرب. تحقيق عبد الله على الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلى. القاهرة، دار المعارف، لا.ت، ٢٢٧/٤، مادة شعب.

(٤) أبو حيان: البحر المحيط . بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ٥٢٢/٩، والقرطبى: تفسير القرطبى. دار الريان للتراث، لا.ت، ١٣٩/٢٦، وأبو عبيدة معمر بن المثنى: مجاز القرآن. تحقيق د. محمد فؤاد سزكين. القاهرة، مكتبة الخانجى، ٢٢١/٢، وابن الجوزى: زاد المسير فى علم التفسير. بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٨٧م، ١٨٦/٧، وأبو السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم. بيروت، دار إحياء التراث العربى، ١٩٩٠م، ١٢٣/٧، والبقاعى: نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور. تحقيق عبد الرزاق غالب المهدى. بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ٢٣٦/٧، والبيضاوى: أنوار التنزيل وأسرار التأويل. تحقيق عبد القادر عرفات. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ٢١٩/٥، والألوسى: روح المعانى في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. بيروت، دار إحياء التراث العربى، ١٦٢/٢٦. والآية فى سورة الحجرات: آية ١٣.

(٥) البحر المحيط، ٥٢٢/٩ .

(٦) تفسير القرطبى، ٦١٦٤/٩ .

(٧) أحمد أمين: ضحى الإسلام. القاهرة، مكتبة نهضة مصر، ط١٠، لا.ت، ٥٦/١ .

(٨) الجاحظ: البيان والتبيين. تحقيق عبد السلام محمد هارون. بيروت، دار الجيل، لا.ت، ١٢/٣ .

(٩) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، رسالة النابتة، ٢٠/٢ .

(١٠) الجاحظ: العثمانية. تحقيق عبد السلام محمد هارون. بيـــروت، دار الجيـــل، ط١، ١٤١١هـــ/ ١٩٩١م، ص٢١٧ – ٢١٨ .

(١١) المصدر السابق، ص٢٠٠–٢٢٠.

(١٢) البيان والتبيين، ٣/٥ – ٦.

(١٣) د. عبدالله التطاوى: مستويات الحوار فى فنون النثر العباسى. القاهرة، دار غريـــب للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٥م، ص ٨٨.

(١٤) عبد القاهر الجرجانى: الرسالة الشافية فى وجوه الإعجاز. منشورة مع كتاب: دلائل الإعجاز. تحقيق محمود شاكر. القاهرة، الخانجى، ص ٥٧٦.

(١٥) د. سعيد حسين منصور: النثر العربى فى مراحل تطوره حتى نهاية القرن الثالـــث الهجرى. الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٤١٨هـــ/ ١٩٩٧م، ص٢١١.